

## أهداف التريية في ظل مجتمع المعرفة.

أ. لعودي فرحات.

قسم علم الاجتماع.

جامعة بجاية.

### ملخص:

نسعى من خلال هذا المقال إلى إبراز العلاقة الوثيقة والمتشابكة بين التربية والمعرفة، باعتبار أن المجتمع المعاصر يمتاز بالتدفق الهائل للأخبار والمعلومات، يستلزم ذلك من المنظومات التربوية أن تساير هذه الثورة العملاقة، التي مسّت وسائل الإعلام والاتصال، بتحويل مناهجها التعليمية وتغيير مضامين مقرراتها تشجيعاً للفكر المحاور والعقل المنتقد والذهن المتفتح، والقضاء على طرق التدريس البالية التي تحض على الحفظ دون فهم، وعلى الاجترار من غير تثبّت وعلى قبول الغث والسمين دون تمحيص. ترتبط التربية في الوقت الراهن بتحديات جمة وبرهانات كثيرة تفرضها مستلزمات اقتصاد السوق، وإكراهات العولمة والكم الهائل من البيانات والمعطيات والأفكار التي تبتث عبر الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).

### Résumé:

L'objectif principal de cet article est de présenter avec précision la relation qui existe entre l'éducation et la connaissance, et le but essentiel est de montrer l'influence de la société de l'information sur les systèmes éducatifs, ces derniers doivent rénover les méthodes d'enseignement et modifier les contenus des manuels scolaires pour produire des esprits ouverts et des intelligences communicatives. Donc la visée primordiale de l'école est de former des individus aptes et capables caractérisés par des consciences lumineuses et des raisons critiques.

L'éducation contemporaine cherche à répondre aux exigences de la mondialisation et aux nécessités de l'économie de marché et aux différents défis provoqués par les technologies de la communication et de l'information.

## مقدمة:

ينبغي على المتخصص في علوم التربية، في الوقت الراهن، أن يعطي لمسألة الصلة بين التربية والمعرفة الاهتمام اللائق، وهذا لأسباب كثيرة أهمها أن المعرفة تمثل إلى حد بعيد مضمون التربية وأهدافها الأساسية، وكذلك باعتبار أننا نعيش في مجتمع المعرفة الذي يشهد تدفقاً مذهلاً للمعلومات والبيانات والأخبار والمعطيات. كل هذا يستدعي تخطيطاً تربوياً يمتاز بالعقلانية والانضباط، مبني على تحديد مرام واضحة ومقاصد جريئة، تلخص في توليد الكفاءات اللازمة لتحقيق التنمية وتكوين المؤهلات الضرورية لمواجهة تحديات العولمة الاقتصادية والثقافية. فما يتجاهله الكثير من المعلمين؛ هو أن ثقافة الاجترار ولّت، وذهنية التقليد أفلت، وعقلية الإتياع اندثرت، ويجب أن تعوّض بالذكاء المحاور، والعقل المتفتح، والفكر النّاقّد، لأنّ الرهانات تعاظمت والالتزامات تكاثفت؛ فلا مجال، في هذا العصر، للحمول والجمود ولا للكسل والغباء. فالتربية تعتبر المنفذ الوحيد لرفع مستوى الموارد الإنسانية التي عليها أن تتحكم في استعمال أسلحة القرن ومن أبرزها سلاح العلم والمعرفة.

تواجه البشرية في الآونة الراهنة، مرحلة الانفتاح الإعلامي والثقافي مما يتطلب إعادة النظر في كنه المناهج، وطرائق التدريس، والمقاصد التربوية، والمهارات التي يجب أن يستحوذ عليها المتعلم كما تتطلب مراجعة كاملة للأنساق التربوية.

وتتأثر التربية، بالانفجار الحاصل في المعرفة، وهو انفجار هائل يزداد اتساعاً وعمقاً، ويتردد صدها في جميع المجالات مطيحاً أمامه بالعديد من الأفكار، بل الاتجاهات العقلية التي سيطرت على العقول. إنّ بعض ما يدرسه طلبة الجامعات في بعض الدول المتقدمة مثلاً، لم يكن موجوداً أصلاً منذ عشرين سنة، بل إن بعض مراكز البحوث تدرس موضوعات لم يعرف عنها -حتى أسماءها- علماء منذ ثلاثين عاماً<sup>1</sup>.

## 1- إعادة الاعتبار لمفهوم التربية.

التربية، تعني التنشئة والتنمية، وتستدعي بذل أقصى الجهود وتقديم أفضل اهتمام تنطلق من فهم حقيقي لحاجات الإنسان وميوله ودوافعه وأبعاده النفسية والجسمية والعقلية والروحية والاجتماعية، كما تقتضي دراية جادة بظروف بيئته والعوامل التي تؤثر في تنشئته. كما تعتبر التربية عملية معقدة ذات أهداف متنوعة ووسائل متعددة ترمي إلى نمو المتربي جسداً وعاطفةً وعقلاً واجتماعاً، معرفة ومهارة، إنّها عملية نمو للشخصية الإنسانية بوصفها كلاً لا يتجزأ، بوصفها جسداً

ونفساً، عقلاً وعاطفةً وعملاً، بوصفها مواقف وتصرفات، مشاعر ونوايا، مفاهيم وأعمال، وبهذا المعنى تكون التربية هي الحياة بمعناها الغني والثري المتعدد الجوانب.

إنّ ما نرمي إليه من خلال هذا الطرح هو ضرورة تصوّر التربية كعملية مقصودة، ومخطط لها تهدف إلى إعداد الفرد إعداداً للحياة في الحاضر والمستقبل وتأهيله واكتشاف مواهبه وتنمية قدراته واستعداداته وإكسابه المهارات التي تناسب كفاءاته وميوله ليحقق ذاته في التكيف مع بيئته والمجتمع الذي يحيا فيه.<sup>2</sup>

## 2- المعرفة؛ المفهوم والمغزى:

المعرفة مفهوم عام وشامل وهي كل ما يحصله الإنسان (بعقله أو بحسه أو بحدسه) من معان أو مفاهيم أو تصورات أو أفكار (علمية أو خرافية) أو معطيات إمبيريقية أو ملاحظات ومشاهدات أو خبرات (حياتية أو فنية متخصصة) أو الهامات وتجارب روحية عما يعنيه ما يحيط به<sup>3</sup>. ومن التحديدات الدقيقة لمفهوم المعرفة، النظر إليها باعتبارها الفعل العقلي، الذي يتم به حصول صورة الشيء في الذهن، سواء كان حصولها مصحوباً بالانفعال أو غير مصحوب به.

يوجد في هذا المعنى إشارة إلى أن المعرفة تمثل تقابلاً واتصالاً بين الذات المدركة والموضوع المدرك<sup>4</sup>، فهترتبط بقدرات الإنسان الفطرية والمكتسبة والتي توفر له الإدراك والتصور والفهم. ويمكن عرضها كقدرة تُحقق تفاعلاً يُحسّد عن طريق الحوار، وكآلية من خلال استخدام التقنيات التي تتيح المعرفة الإلكترونية والتكنولوجية. كما قد يشير لفظ المعرفة إلى معنى عملية المعرفة، وهنا تصبح المعرفة إدراكاً حسيّاً أو عقليّاً، وتبصراً، وتأملاً وتفهماً، وتمييزاً وإلماماً، وإحاطة، وسيراً لأغوار الحقيقة، وارتداداً للمجهول، وبحثاً عن علل وأسباب، وإدراكاً لجواهر وماهيات، وتحقيقاً من فروض وتصورات.. الخ. وقد يشير كذلك إلى ناتج عملية المعرفة، وهنا أيضاً نجد أشكالاً للمعرفة متنوعة المصادر متباينة الأهداف والمرام. هذا وللمعرفة درجات متفاوتة أدناها المعرفة الحسية المشتركة، وأعلاها المعرفة العقلية المجردة. ومن عادة المتأخرين أن يفرقوا بين المعرفة الحسية المباشرة والمعرفة الاستدلالية التي تحتاج إلى وسائط وانتقالات، إنّ المعرفة بصفة عامة نسق من المعاني والمعتقدات والمفاهيم والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الإنسان نتيجة لمحاولاته فهم الظواهر والأشياء المحيطة به<sup>5</sup>.

فالمعرفة إذن هي أداة يحقق بها الإنسان ذاته ووسيلة تكيفه وتوافقه مع المحيط الفيزيقي والاجتماعي، وهي ذلك المجهود البشري المتواصل الذي يبذله الإنسان كي يفهم ويعقل وجوده وواقعه الطبيعي والاجتماعي، والذي شكّل المحرك الأساسي لفعل التفكير أو الوعي عبر تاريخيته العريقة. وتشكل المعرفة، ككيان ذهني من مجمل الأحكام والأفكار والتصورات لدى جماعة بشرية

معينة أو عدة جماعات بشرية تعيش في إطار نظام اقتصادي وسياسي محدد، وفي إطار مسار تاريخي خاص، علماً أن تناسق هذه العناصر يتم عبر التفاعل الاجتماعي فتغدو المعرفة من هذا المنظور محصلة وعي البشر لتجارهم المتراكمة في مجالات الحياة كافة<sup>6</sup>، إنها تتسم بالعديد من الخصائص كونها غير مادية أي غير ملموسة، وكونها تتعرض للتغير المستمر، أي أنها غير ثابتة وتتغير بتغير المعلومات التي تحصل عليها، وإن المعرفة هي نتاج العلم، والتعلم، والعمل، والخبرة، وكذلك فإنها تراكمية، وغير قابلة للنضوب، أي أنها تتجدد وتزداد وتتراكم بما يضاف إليها، وإن التوصل إلى معرفة معينة يمكن أن يقود إلى توليد معرفة جديدة...

كما تتسم المعرفة بأن المانح لها لا يخسر<sup>7</sup>. إن المعرفة عملية تراكمية تكاملية تتكون على امتداد فترات زمنية طويلة نسبياً كي تصبح متاحة للتطبيق والاستخدام من أجل معالجة مشكلات في ظروف معينة. وبالتالي فإن المعرفة تستخدم لتفسير المعلومات المتوفرة عن حالة معينة، واتخاذ قرار حول كيفية إدارة هذه الحالة ومعالجتها.

### 3 - التربية ومجتمع المعرفة:

إننا نعيش في "مجتمع المعرفة" الذي يشهد قفزة نوعية مذهلة لتكنولوجيا المعلومات وانفجاراً معلوماتياً ترتب عنه تسارع شديد في تضخم المعرفة ووسائل استخدامها وتوظيفها. حتى أصبحت تتعاطم بشكل خيالي في سرعته وقدرته التي تتجلى في جمع المعلومات واستيعابها وتصنيفها وتبويبها وتخزينها واسترجاعها وتحليلها وتركيبها وتوليد أنواع ومستويات من المعرفة المسجلة باللغات الحية وباللغة الرقمية، وفي هذا إننا نحيا زمن المعرفة الموسوعية، وتوسّع مصادر المعلومات، وتقدم كبير في ترتيب المعلومات والمعارف وتصنيفها، وتوفر معرفة بالغة التخصص، ومعرفة للمتخصصين ولغير المتخصصين، ولجميع الأعمار، وبكل لغات العالم، فيستطيع أي إنسان، في أي مكان في مشارق الأرض ومغاربها، الحصول على ما يريد من معارف ومعلومات، وهو في مكانه، بفضل التقدم العلمي وثورة الاتصالات وتقدم أجهزة الكمبيوتر التي تتطور بشكل باهر، كما أن التوسع الضخم في شبكة المعلومات الدولية (انترنت) يقدم المعرفة في أشكال وبأساليب متنوعة وجذابة ومبهرة.

ولتأكيد ما سبق نقترح مثلاً يوضح جلياً ما نرمي إليه، إنه مشروع "الجينوم البشري" الذي نما في مطلع القرن الحادي والعشرين، والذي يعتبر أهم وأدق مشروع معرفي في تاريخ البشرية، لأنه يتعلق بسر الحياة، ويصف الحروف التي كتبت بها حياة كل فرد من أفراد المجتمع الإنساني، ولأنه يتناول الجهاز الوراثي للإنسان (أي المجموعة الكاملة من الجينات البشرية) بالتشريح الجزيئي في طفرة علمية غير مسبقة يُعتقد أن معرفة "اللغة الجينية" وحل الشفرة الوراثية، يعتبران خطوة أولى في طريق التحكم

في الجينات، وضبط التفاعل بين الجينوم وعوامل البيئة المحيطة. ومن الأهداف الرئيسة للمشروع: معرفة مواقع الجينات ووصف تركيبها ووظيفة كل جين، للإفادة من ذلك لصالح الجنس البشري، خاصة في علم الوراثة وميدان الطب، حيث يتيسر فهم الآلية الدقيقة للأمراض الوراثية التي تصيب الإنسان ومحاولات علاجها بواسطة "الجراحة الجينية". يحلم العلماء بتحسين الوراثة للإنسان، وتحقيق وجود مجتمع خال من الأمراض في منتصف القرن الحادي والعشرين، وحل مشكلات الشيخوخة، وإطالة متوسط الأعمار، هذا فضلاً عن موضوع الاستنساخ بفوائده وأضراره.<sup>8</sup>

والواقع أن المراهنة على ما أضحي يسمى بـ "المجتمع المعرفي" أو "المجتمع المعلوماتي" يفترض تكوين قوى بشرية وكفاءات عالية تسير خصائص الاقتصاد وتستفيد من محفزاته. وهو مالا يتوافر في الغالب الأعم، بحكم سيادة نمط في التعليم (العالي بالأساس) يركز على الدروس النظرية في غياب سبل تطبيق المعارف وتكريس مخرجاتها على أرض الواقع.<sup>9</sup>

إن أبرز عيب يشوب نظامنا التعليمي هو غلبة عنصر التلقين عليه، وهو ما يتجسد في نظام "الإجابة النموذجية" التي يسعى الطالب إلى الالتزام بها ويحكم المصحح على أدائه من واقعها، وعلى كثرة ما قيل عن ضرورة إتاحة المجال لإعمال الذهن وتنمية التفكير الابتكاري وتشجيع المبادرات الخلاقة لدى طلابنا فما زال أسلوب التلقين - من الناحية الفعلية - هو الغالب على مناهجنا الدراسية. إنه على الصعيد الفكري الأوسع نطاقاً، يعكس غلبة النقل على العقل، والمحاكاة على الأصالة، والإتباع على الإبداع.<sup>10</sup> كما يفرض مجتمع المعرفة على أعضائه أن يتعلموا كيف يتعلمون؟ لأن المعرفة بطبيعتها متغيرة. الأمر الذي يستلزم أن يكون التعلم متواصلاً، والمهّن والمهارات متعددة ومتنوعة.

"ماذا نعلم؟" ذلك أن العلم بطبيعته في صيرورة دائمة، وتطور لا يعرف التوقف، الأمر الذي يستلزم أن تكون مناهجنا متطورة ومواكبة لحركة التغير والتطور، مؤمنين بأن التغير هو سنة الحياة، وأن من لا يتقدمون إلى الأمام هم بالضرورة يتقهقرون إلى الخلف. كما نبحت في "من يُعلم؟"، وهو أمر يستلزم إعادة النظر في إعداد المعلم، بحيث يكون معلماً، لديه مخزون معرفي متنوع يتمتع بقدرة التعرف على المشكلات، لديه خيال فعال، أي أن يكون معلماً مبدعاً مطبوعاً على التدريس وعاشقاً له، "ماذا نعلم؟" هل نعلم لتكوين مستهلكين للحضارة أم منتجين لها؟ أليست لنا رؤى مستقبلية نسعى إلى بلوغها من خلال المعرفة؟ أليست المعرفة هي التي تساعد على تجدد الثقافة الوطنية، وتحقيق التغير المطلوب على نحو يتسع فيه نطاق البحث العلمي؟، "كيف نعلم؟" معتمدين على بعث الممارسة لمهنة التعليم، ومستوى المعرفة وتطورها، والاستعداد العقلي للدارسين، والارتكاز على نسق تعليمي متميز يحقق الائتلاف المنشود بين قوة الذاكرة وثقافة الإبداع كتجسيد للمستقبل؟<sup>11</sup>

يتسم العصر الذي نعيش فيه بتزايد الاعتماد على المعلومات بصورة أو بأخرى ويطلق عليه البعض "عصر المعلوماتية". والمعلوماتية بما تتيحه من تبادل المعارف والخبرات وتفاعلها سوف يجعل الاكتشافات العلمية والابتكارات التكنولوجية متزايدة في هذا العصر، وسوف يكون التغير تغيراً أسيّاً مما يجعل الفجوة بين من يبدع ومن لا يستطيع أن يبدع في اتساع مستمر، فنحن مقبلون على "مجتمع بلا أوراق" يعتمد على أنظمة آلية للمعلومات، حيث يصير في متناول الإنسان الموسوعات والمعاجم والأدلة والفهارس المخزونة آلياً.. وما يجب التنويه به في إطار العصر الذي نعيشه هو ضرورة تنمية التفكير لمواجهة التحديات المستقبلية، فمن خلال استعراض الرهانات والمستجدات يتضح لنا أن الحياة في القرن الحادي والعشرين أضحت أكثر تعقيداً أضعاف ما كانت عليه في الماضي القريب، ولن يكتب التوفيق في هذا القرن إلا لمن يستطيع أن يستوعب التغيرات التكنولوجية والمعلوماتية المذهلة، ويتمكن من ناحية أخرى من تحقيق نوع من التوازن بين معاصرة العولمة، والحفاظ على أصالة الهوية الوطنية التي تعتمد على تفجير طاقات الإبداع والابتكار والتميز، واستخدام القدرات العقلية النافذة.

إن المعرفة في ذاتها هدف يستحق التقدير، ولكنه ليس كافياً، فنحن نسعى للمعرفة بغرض استخدامها والاستفادة منها وإعطائها معنى، فاستخدام المعرفة لفهم القضايا يجعلها أكثر ارتباطاً بالتعليم. والتعليم الكفاء ليس مجرد فهم مادة معينة والقدرة على استرجاعها أو القيام ببعض الإجراءات المتضمنة فيها، ولكنه يشمل توسيع الخبرة وامتدادها وتمحيصها، وهذا لا يتم تلقائياً، بل لا بد من بذل الجهد لتحقيقه، لأنه يتطلب تفكيراً ودافعية لا تتوفر في أسلوب اكتساب المعلومات، ولكنه يتم عن طريق القيام بالعمليات العقلية والأنشطة التي تستثير التفكير للاستغلال الأمثل للمعلومات واستثمارها وتحويلها إلى مشاريع وتطبيقات عملية. ولتحقيق ينبغي ذلك تغيير طريقة تفكير التلميذ منذ المراحل الأولى من عمره، حتى ينشأ جيل جديد قادر على تعلم كيفية البحث بنفسه عن المعلومة، ويقتنع بها، ويستفيد منها في حياته اليومية. وقادر على استخدام أساليب التعليم والتعلم التي تسهم في تنمية وإطلاق طاقات الإبداع عند المتعلم والخروج به من ثقافة تلقي المعلومات إلى ثقافة بناء المعلومات ومعالجتها، وتحويلها إلى معرفة تمثل في اكتشاف علاقات، وظواهر بما يمكنه من الانتقال من مرحلة المعرفة إلى مرحلة ما وراء المعرفة<sup>12</sup>، المتمثلة في التأمل في المعرفة والتعمق في فهمها وتفسيرها، واستكشاف أبعادها الظاهرة، والاستدلال على أبعادها المستترة من خلال منظومة حيّة من البحث.

من المحاور الأساسية في المنظومات التربوية المعاصرة تعليم التلاميذ كيف يفكرون، وذلك عن طريق تنمية قدرتهم على كيفية التفكير في التفكير، وكيفية معالجة المعلومات للاستفادة منها في مواقف الحياة المختلفة، حتى تنمو لديهم القدرة على الانتقاء والتجديد والابتكار وممارسة مهارات التفكير

وعملياته في مجالات الحياة المختلفة، وتنمو قدرتهم على التعلم الذاتي وكيفية البحث عن المعرفة من مصادرها المتنوعة، حتى يمكنهم من مواجهة هذا الطوفان المعرفي الهائل المدعم تكنولوجياً. لا يكتمل الحديث عن مجتمع المعرفة إذا أهملنا الجانب الاقتصادي الذي يعتبر من أهم ركائز المجتمعات المعاصرة، فالتحدي الحقيقي في الوقت الراهن هو التحدي الاقتصادي فالكفاءات المطلوبة حالياً ترتبط إلى حد بعيد بالجانب المعرفي، والصناعة التكنولوجية المعاصرة تدمج المعرفة في كل منتجاتها. إننا نتحدث عن الهواتف الذكية والمنازل الذكية والسيارات الذكية وهلم جرا.

لقد تكوّنت الاقتصاديات المبنية على المعرفة تاريخياً انطلاقاً من ظاهرتين أساسيتين هما: من جهة اتجاه واسع نحو الزيادة المعتمدة للموارد الخاصة بإنتاج ونشر المعرفة (التربية والتعليم، التكوين، البحث العلمي، التنسيق الاقتصادي) ومن جهة أخرى تقدم تكنولوجيا كاسح (بروز تكنولوجيات الإعلام والاتصال). التقاء هاتين الظاهرتين أنتج اقتصاداً فريداً، يتميز بالانخفاض المحسوس لتكاليف ترميز وبتوثيق المعارف<sup>13</sup>.

لقد تطور اقتصاد المعرفة كتخصص أكاديمي حينما شيدت اقتصاديات مبنية على المعرفة أي الاقتصاديات التي شهدت وظائف ومهن تستخدم بشكل مكثف المعرفة، وكذا الثقل الاقتصادي لقطاعات الإعلام الذي أضحي حاسماً؛ ونصيب الأسهم اللامادي أو الرمزي تجاوز حصة الأسهم المادي أو الملموس في المخزون الحقيقي للأسهم عامة. إن المؤسسات الصناعية تؤدي عملية تصفية لحصر كم المعلومات الجاهزة، لتحويلها إلى معارف منقحة معروضة على شكل وحدات إجرائية، يبقى علينا التأكيد على أن المعرفة يجب أن تكون مقدّمة بوضوح لأصحاب القرار، ولكي تبث وتنشر يجب أن تختزل وترجم على شكل رسائل، أي تتحول إلى معلومات. ويعتبر هذا التحويل شرطاً ضرورياً لتبادل المعرفة كثرة<sup>14</sup>.

#### 4 - التربية بين الثقافة والمعرفة:

حينما ندرس الثقافة فهذا يعني الاهتمام بالكيفية التي يضيف بها الأفراد معاني معينة على المواقف والأحداث والموضوعات والعلاقات، باختصار على حياقم كلها. ومن ثم استكشاف مختلف الشاشات الإدراكية، والتي من خلالها يقوم الناس بتفسير أو فهم عالمهم إلى جانب العلاقات الاجتماعية، التي تجعل رؤى معينة للواقع تبدو أكثر أو أقل مصداقية<sup>15</sup>. وقد تكون الثقافة - في تحديدها النظري الأولي - مرادفة في المعنى لمفهوم المعرفة، فيقال إن ثقافة مجتمع أو أمة أو طبقة أو جماعة اجتماعية، هي طريقته في معرفة الأشياء وبناء إدراك حولها. ولا شك في أن الاشتراك في المعنى بين الثقافة والمعرفة مرده إلى أن كليهما يحمل معنى الوعي، وهو تمثل الشيء وإدراكه، أي تكوين صور

ذهنية عنه تؤسس نوعاً من الفهم له، والقدرة على تنظيم وترتيب العلاقة بين عناصره بشكل يتراح فيه الغموض، فيبدو أقرب ما يكون إلى الشيء "الواضح"<sup>16</sup>.

إنّ الثقافة لا تفهم إلا باعتبارها مظهراً للوعي الذي يستوعب الإنسان من خلاله، فرداً وجماعة، العالم ويفهمه ويجعله شفافاً أي قابلاً للتمثل في الذهن، ولا تفهم أيضاً إلا باعتبارها استجابة لواقع موضوعي، قائم خارج الذهن يفرض نفسه بصرف النظر عن الفكرة أو الصورة التي يصنعها له الوعي، بيد أن هذا الوعي وذاك الواقع لا يخلقان ثقافة إلا عبر المجتمع والجماعة، باعتبارهما صيرورة تاريخية، فالثقافة هي إذن جملة الأنماط (القيم والقواعد والأعراف والتقاليد والخطط... الخ) التي تبدع وتنظم لدى جماعة ما حقل الدلالات (العقلية والروحية والحسية) وتحدد بالتالي لدى هذه الجماعة أسلوب استخدامها لإمكاناتها (البشرية والمادية) ونوعية استهلاكها لبيئتها. ويكون نجاح الثقافة وتطورها بقدر فاعليتها في تحقيق الاستخدام الأمثل لإمكاناتها (أي الجماعة) وهو ينعكس في قدرتها على التحكم بنفسها أي بصراعها الذاتية وبيئتها الخارجية، وفي تمكنها من السيطرة على مصيرها.

فلهذا نقول أن التجربة العقلية لجماعة ما لا تنحصر في التجربة العلمية أو الأخلاقية أو الفنية، ولكن تتجاوزها جميعاً وتصب في حقل أوسع وتعيد بناء هذا الحقل في كل مرة يمر فيها المجتمع بتجربة حضارية جديدة، ورغم تميز هذه النظم المعرفية والأخلاقية والفنية، فإنها تبقى مرتبطة بنسغ واحد هو الثقافة التي تنتمي إليها. ومن هنا فإن غنى الثقافة وقدرتها على التكيف مع الأوضاع الجديدة الطارئة مرتبطتان بتنوع مصادرها الأساسية وثروتها من الدلالات القائمة والمخزونة أي من تراثها الماضي والراهن.

إنّ العقل لا يتكون من ماهية صلبة واحدة وأحادية، بل هو مكوّن من بنيات مختلفة علمية، إيديولوجية وفنية، أو معرفية ومعيارية ورمزية متفاوتة في مقاصدها ووظائفها وطريقة عملها وزمنيتها. كما تبين أركيولوجية الثقافة أن زمنية المنظومة المعرفية ليست متطابقة بالضرورة مع زمنية المنظومة المعيارية أو الرمزية. وأنّ قيم هذه المنظومات يمكن أن يتطور بشكل متباين وتنتمي بالتالي إلى حقب اجتماعية وثقافية مختلفة. فقد تجتمع المفاهيم العلمية الوضعية مع مثل عليا تقليدية أو مع قيم فنية "بدائية" وهذا التباين هو من صميم التجربة الثقافية والحضارية لكل جماعة، وهو مصدر التوتر الخلاق الذي يحرك العقل ويدفعه إلى الإبداع.

أمّا عندما نقول أن الثقافة ليست مجرد النتاج الفكري ولا النظريات أو الأفكار المتداولة فنحن نريد أن نؤكد على السيوروات العميقة التي تنشأ الثقافة بها ومن خلالها، وهي سيوروات رمزية ومعيارية وعقلية تتجاوز النشاط العقلي الهادف وتفيض عن النشاط العقلي المنظم. فالمنظومة

المعرفية تحدد مكانة العلم وسبل الوصول إلى المعارف اليقينية وإنتاجها وتقود من ثم إلى ترتيب معين للمفاهيم والدلالات يعكس أولويات هذا الإنتاج وشروطه العامة الروحية أيضاً، فلذلك نادراً ما تستقل نظرية التحصيل العلمي عن الرؤية الفلسفية للكون، وعن ميتافيزيقا معلنة أو ضمنية تحدد مضمون العقل والعقلانية. ودلالتهما وتضع المسلمات الأولى أو البديهيات التي لا برهان عليها لعمل العقل<sup>17</sup>.

## 5 - الذكاء المعلوماتي:

أضحت عبارة الفضاء المعلوماتي مألوفاً على ألسنة الكثيرين في وقتنا الراهن، وباتت تستخدم لوصف البيئة الافتراضية للإنترنت، وبقية وسائط الاتصال الرقمية التي يكثر استخدامها في مجتمع المعلومات. ويتجاوز الفضاء المعلوماتي بعناصره الحدود التي تمتد عليها شبكة الإنترنت العملاقة، وبقية العوالم الافتراضية المستحدثة، ليشمل جميع مكونات فضاءات الاتصال السائدة في المجتمع الإنساني بكافة مستويات أنشطته<sup>18</sup>، هذا ومن بين المصطلحات المبتكرة لربط المعرفة بعالم الإعلام، لدينا الكيانات المعلوماتية التي تعد مورداً للمعرفة في الفضاء المعلوماتي، والتي تنقسم إلى ثلاثة مستويات رئيسية:

أ - المستوى الأول؛ البيانات: بصورة عامة يستخدم مصطلح البيانات لوصف الكائنات، والأرقام والإحصائيات، وغيرها، التي تصلح للتخزين أو المعالجة في البيئة الحاسوبية.

ب - المستوى الثاني؛ المعلومات: يستخدم مصطلح المعلومات لوصف كل أنواع البيانات - مسموعة كانت أم مرئية - التي تمّ تجميعها بالملاحظة، أو المراقبة، أو التدوين وتمتاز بكونها قابلة للمعالجة بتقنيات الحاسوب والآليات المعلوماتية المتاحة، فتحول إلى خطاب يحمل دلالة معرفية قابلة للتفسير، والتداول بما يضمن إكساب الجهات التي تستخدمها معارف، أو حقائق قابلة للاستثمار في شتى ميادين الأنشطة المعاصرة.

ج - المستوى الثالث؛ المعارف: تمتاز المعرفة بكونها حصيلة عملية تقطير للبيانات، والمعلومات لإنتاج قواعد منطقية تصلح للتوظيف في تجاوز عقبات ماثلة، أو توليد سلوك ذكي يتسم بالخبرة والحنكة في معالجة المواقف.

لذا فإنّ عملية توصيف المعرفة تشمل: اختزان المفردات، واختيار الآليات المناسبة لمعالجة البيانات والمعلومات، وفق شبكة العلاقات والقواعد التي تربط بين هذه المفردات في أنموذج معلوماتي متكامل فيه الأواصر القائمة بين هذه المفردات وبالشكل الذي يوفر بيئة برمجية متكاملة تمتلك القدرة على صنع قرار يستثمر محتويات قاعدة المعرفة في تحقيق الغايات المحددة له<sup>19</sup>.

أما فيما يخص تكنولوجيا المعلومات فهي مجموع الوسائل والإجراءات التقنية التي تمكن، في مكان ما وزمان معين، من تصميم وإنتاج وإعادة إنتاج وتخزين واسترداد المعلومات بمختلف أشكالها وأنواعها وأحجامها ووظائفها، المكتوب منها كما المرئي كما المسموع، فتكنولوجيا الاتصال هي مجموع الوسائل والإجراءات التقنية التي ينتجها مجتمع ما، في زمن ما، بغرض إرسال المعلومات والبيانات والمعطيات (بكل أحجامها وأشكالها) بين جهة مرسلة وجهة مستقبلة لذلك الإرسال. وهي بالتالي، البنية التحتية المؤسسة لبنية الشبكة التي تنتقل عبرها هذه المعلومات والبيانات والمعطيات. إنها محولات الاتصالات والمبادلات الهاتفية والكوابل ومراكز التبديل والأقمار الصناعية ذات الأغراض الاتصالية وغيرها. فهي إذن (شأنها شأن تكنولوجيا المعلومات) بنية تحتية وشبكات مادية متداخلة ومتكاملة، لكنها تخضع إلى عناصر رخوة وبرمجيات عالية الدقة تمكن من التواصل بين أطراف الشبكة، وتحول دون تعطلها أو إصابتها بالعطب، وتعمل على المرونة بين باعث الرسالة (كلمة كانت أو صوتا أو معطى أو صورة) وبين المستقبل لها على الطرف الآخر<sup>20</sup>.

نعود للحديث عن الإنترنت وتعريفها بأنها تلك الشبكة الكثيفة من مراكز تبادل المعلومات التي تحتزن وتستقبل وتبث جميع أنواع المعلومات في شتى فروع المعرفة وفي جوانب الحياة كافة، من قضايا الفلسفة وأمور العقيدة إلى أحداث الرياضة والمعاملات التجارية، ومن مؤسسات غزو الفضاء وصناعة السلاح إلى معارض الفن ونوادي تدوق الموسيقى، ومن الهندسة الوراثية إلى الحرف اليدوية، ومن المؤتمرات العلمية إلى مقاهي الدردشة وحلقات السمر عن بعد، ومن صفقات بورصة نيويورك إلى مآسي المجاعات والأوبئة في أرجاء القارة السمراء<sup>21</sup>.

إن معالجة مسألة الذكاء وفق منظور معلوماتي يجعل منه عبارة عن نسق معرفي يتألف من معلومات أحسن تشكيلها، وتنظيمها، وتوجيهها بحيث يمكن استثمارها على أرض الواقع في حلّ المشاكل والعقبات التي تعترضنا، أو في ابتكار آليات جديدة للتعامل مع الواقع. إذن فتساق الذكاء المعلوماتي يختلف عن بقية الأنساق المعلوماتية التقليدية في كونه عبارة عن نسق بالغ التعقيد، يتألف نسيجه من ارتباطات بين مستويات مختلفة من البنى المعلوماتية، وبأغماط يصعب تفسير كل مفرداتها، بحيث تمارس من خلالها سلسلة عمليات إعلام ينشأ عنها توافر بيئة أو منطق قادر على التعامل مع حقل محدد من المسائل الشائكة، وعليه وفي ضوء ما سبق يصبح الذكاء عبارة عن إطار معلوماتي، تتألف مادته من نسيج مبتدع من المعلومات المترابطة في ما بينها وفق منطق محكم، وتمارس من خلاله سلسلة من العمليات المعلوماتية على وسط رقمي للظفر بحل لمسألة مطروحة، أو تجاوز عقبة معرفية<sup>22</sup>.

لقد غاب التأثير الكبير الذي كان يمارسه أساطين العلم وجهابذته على ساحة المتغير المعرفي والثقافي المعاصر بعد أن أصبحت موارد المعرفة وبياناتها مطروحة بسخاء على شبكات المعلومات، ودون مقابل في كثير من الأحيان. وأضحت المعرفة صناعة تعالج من خلالها البيانات الرقمية بواسطة أدوات ذكية تعاد ترتيب المفردات لتغيير المظهر، ومنحها فرصة جديدة لطرح المادة بأسلوب جديد يوهم الإنسان المعاصر أن ما بيديه نتاج إبداعي جديد. لقد زالت في وقتنا الراهن الحدود والتخوم التي تحدد معالم هوية منتج الخطاب المعرفي، أو هوية مستهلك الخطاب، بعد أن أصبحت العلاقة مباشرة، ومتدفقة بصورة دائمة. ولم يعد في الساحة سوى المعيار الشخصي الذي يعاني من حالات تغييب مستمرة للوعي، وضياح في ركام المعلومات تجعل المستخدم يعاني من حالات انشطار مستمرة في الوعي، كنتيجة لحالات القفز المستمر بين الارتباطات الشعبية للمفردات التي يطالعها في مواقع الإنترنت، وما لم تقم المؤسسات العلمية، ومراكز البحوث، والجهات التي تعنى بالثقافة بمباشرة عمليات مراقبة مستديمة لما يطرح في الأوعية المتعددة للإنترنت، فلن نكون قادرين على تمييز الغث من موارد المعرفة الرقمية المطروحة، وستفاقم إشكالية التلوث المعرفي وستنمو وتتضخم لتصبح علة مستديمة في الفضاء المعلوماتي<sup>23</sup>.

#### الخاتمة.

أصبح العديد من الباحثين في ضوء محدودية قدرة الإنسان على التعامل مع الكم الضخم والمتزايد من المعلومات، ينظرون إلى الزخم الهائل من المعلومات الحالية على أنه عبء معلوماتي يشكل مصدراً للضغط على الإنسان - وليس وسيلة مساعدة له - في تعامله مع البيئة والعالم من حوله. فهذا العبء المعلوماتي ينتج عن تزايد حجم المعلومات المتاحة في العلم أو في وسائل الإعلام أو في الاقتصاد الكوني الصاعد عن قدرة الإنسان على التعامل الإيجابي معها، ويتزايد الإحساس بالمشكلة مع إدراك أن كمّاً ضخماً من هذه المعلومات ليس أكثر من معلومات منخفضة القيمة، قليلة الفائدة، وقد تكون عديمة المصداقية في كثير من الأحيان كالعروض التسويقية والرسائل الإلكترونية الدعائية، والمتكررة، والدعاية السياسية الرخيصة، والإعلانات التلفزيونية والإعلانات في الطرقات، والفواصل الإعلانية وغيرها مما أصبح يُطلق عليه التلوث المعلوماتي.

ومع تضخم وتشعب المعلومات المتاحة تصبح عملية البحث عملية لا نهائية إذ لا يجد الإنسان وسيلة للتأكد من أنه يفقد معلومة مهمة في غمار البحث في آلاف بل ملايين مصادر المعلومات. وهكذا يستمر البحث عن المعلومات وكأنه بحث عن كائن مجهول لا نستطيع إدراكه حتى إن كان بين أيدينا. ومرة أخرى، فالإنسان في غمرة هذا السلوك الهازم للذات يواجه إما خطر فقدان معلومات

مهمة وضرورية، أو خطر الاستمرار في البحث بلا جدوى عن هذه المعلومات محاطاً بشعور بالذنب ناتج عن إحساس بقصور البحث<sup>24</sup>. كما يتزايد هذا الإنهاك مع التزايد المستمر في سرعة انتقال المعلومات وتزايدها داخل شبكات الحاسب الآلي المعقدة عبر العالم، حيث يؤدي هذا النمو الانفجاري للمعلومات إلى تزايد انتقال المعلومات الصحيحة والرديئة معاً، وإلى -وهو الأهم- انخفاض الوقت المتاح للتفكير في "معنى" هذه المعلومات، وإلى انتشار التأثير السلبي للمعلومات الخاطئة.

إنّ ما نحتاج إليه في الوقت الراهن هو تشجيع التفكير النقدي -الإبداعي الذي يتعامل مع المعلومات كمادة خام تستحق الاحترام - إذا كانت صحيحة بطبيعة الحال - ولكنها ليست موضع تقديس. في هذا النوع من التفكير، تمثل المعلومات وسيلة وليست غاية، ونقطة بداية لعمليات من التقييم والمراجعة والتحليل وصولاً إلى الربط بين نطاق واسع من المعلومات للوصول إلى "نمط" أو "نموذج" ينظم الظواهر، ويمثل بُعداً مفهوماً للتعامل مع الظواهر المختلفة<sup>25</sup>.

#### قائمة المراجع:

- 1- سعد مرسي أحمد، التربية والتقدم، عالم الكتب، القاهرة، 1991، ص 27.
- 2- خالد القضاة، المدخل إلى التربية والتعليم، دار اليازوري العلمية، عمان، 1998، ص - ص 15-16.
- 3 - السيد عبد العاطي السيد، علم اجتماع المعرفة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2001، ص (ح).
- 4- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1979، ص 393.
- 5- السيد عبد العاطي السيد، مرجع سبق ذكره، ص 4.
- 6- المرجع نفسه، ص 35.
- 7- فليح حسن خلف، اقتصاد المعرفة، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، 2007، ص 12.
- 8- حامد زهران، الهوية الثقافية والتربية في مجتمع المعرفة، في: بحوث في علم الاجتماع المعرفي، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2009، ص. ص 29-30.
- 9- يحيى اليحيوي، العرب وشبكات المعرفة، دراسة في الموقع و الواقع، دار الطليعة، بيروت، 2007، ص 109.

- 10- ماهر شفيق فريد، نحن والآخر: ما الذي يمكن أن تسهم به العملية التربوية في حوار الثقافات، في بحوث في علم الاجتماع المعرفي.
- 11- محمد إبراهيم عيد، مقومات مجتمع المعرفة، في: بحوث في علم الاجتماع المعرفي، المرجع السابق، ص.ص 101-102.
- 12- فوزي الشربيني وعفت الطناوي، استراتيجيات ما وراء المعرفة بين النظرية والتطبيق، المكتبة العصرية، المنصورة، 2006، ص. ص 25-26.
- 13- Dominique Foray, L'économie de la connaissance, Casbah Edition, Alger, 2004, P 3.
- 14- Bernard Guilhon, Jean-Louis Levet, De l'intelligence économique à l'économie de la connaissance, Economica, Paris, 2003. P1.
- 15- ميكائيل ثومبسون، نظرية الثقافة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1997، ص 29.
- 16- عبد الإله بلقزيز، في البدء كانت الثقافة، نحو وعي عربي متجدد بالمسألة الثقافية، دار البيضاء، 1998، ص 41.
- 17- برهان غليون، اغتيال العقل، موفم للنشر، الجزائر، 1990، ص - ص 88-97.
- 18- حسن مظفر الرزوي، الفضاء المعلوماتي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007، ص 17.
- 19- المرجع نفسه، ص 19.
- 20- يحيى اليحيائي، المرجع السابق، ص 15.
- 21- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ص 93.
- 22- حسن مظفر الرزوي، المرجع السابق، ص - ص 61-62.
- 23- المرجع نفسه، ص - ص 226-229.
- 24- محمد طه، عبودية المعلومات، هل المعرفة دائماً قوة؟ مجلة العربي، الكويت، العدد 592، مارس 2008، ص 150.
- 25- المرجع نفسه، ص - ص 151-153.